أحاديث

الأخ عصام العطار

كنت أقرأ المقدمة التي كتبها ستيفان زفايج لـ (نصوص مختارة من تولستوي) ووصلت إلى الصفحات التي صوَّر فيها مرحلة القلق والحيرة في الكاتب الروسي الكبير .

كان تولستوي في تلك الفترة من حياته أصح ما يكون جسماً ، وألمع ما يكون فكراً ، وأقدر ما يكـــون علـــى الإنتاج الفني ..

وكان سيد ضيعة كبيرة لا يشتكي قلة المال ، ولا يكابد نَصَب السعي ، ولا يحمل شيئاً من هموم العيش ..

وكان له زوجة وأولاد وأسرة متعاطفة متفاهمة .. وقد بلغ ذروة الشهرة ، وجمع مجد النسب والأدب ، فهو سليل بيت من أعرق البيوت النبيلة في قومه ، وهو أعظم من حمل القلم في لغته ، وأحد الكتاب المذكورين في العالم .

ولكن حياته –كما يقول– (توقفت عن الحركة ، وغدت كئيبة منذرة) فلم يعد ينعم بالطمأنينة ، أو يذوق طعم الراحة ، أو يهدأ جنبه على فراش ..

ولم يعد يحس سروراً أو يستشعر لذة ، أو يأنس بزوج أو ولد ، أو يجد ما يستلفته أو يحركه ..

أظلمت في عينه الدنيا ، وهاله المصير المحزن ، وغلب عليه الاشمئزاز والملل ، وأخفى بندقيته وأغلق عليها الـــدرج مخافة أن ينتحر من اليأس .

لقد انكشف له –في تلك الفترة– أن حياته سطحية ضحلة ، وأن قدميه تتأرجحان في الهواء ولا تستقران علـــى أرض صلبة ، وتبين أنه لا يعرف غاية حياته ، ولا يدرك معنى وجوده ، ولا يسلك السبيل الأقوم ، ولا يدري كيف يجب أن يعيش ..

وقد صور لنا حالته هذه في حديثه عن (ليفين) في قصته المشهورة (أنا كارنينا) فقال : (في ذلك الوقت تجلت لـــه –لأول مرة– فكرة أن كل حي ليس أمامه شيء يتوقعه إلاّ العذاب والموت والفناء الأبدي .. فقرر أنه لا يمكنه المضي في الحياة على هذا النمط ، فإما أن يجد لها تفسيراً وإما أن يضرب نفسه بالرصاص)

وأذكرني ما قرأت صديقاً لي قد امتاز بسعة الثقافة ، وتوقد الفكر ، ورهافة الإحساس ، أصفاني الـــوداد وأنـــس

بنفسه إلي ، على خلاف بيننا في العقيدة والنهج ..

كان إذا تقدم الليل وأسفر عن وجهه القمر ، وهدأ الناس إلى البيوت طرق عليَّ -أحياناً- بابي ، فخرجنا نتمشى إلى سفح الجبل(*) ، صامتين أحياناً ، قد استبد بنا سحر الطبيعة ، وسبحت روحانا من الضياء القدســـي في أجـــواء ليست من هذه الدنيا .. أو متكلمين نتبادل الحديث في شجون النفس أو مسائل الفكر ، أو قضايا الأدب والفن ..

قال لي مرة وقد مال ميزان الليل ، وانصرف كل منا إلى أعماقه النائية ، وتأملاته البعيدة :

أتدري أنني أغبطك ؟

قلت وقد فجأني كلامه ، وراعني ما لمحت في وجهه من الأسى والكآبة :

- على أي شيء ؟
- قال : على أنك حللت مشكلتك الكبرى ، ووجدت سبيلك إلى الإيمان بالله ..

وسكت برهة ثم قال ونحن نتابع المسير :

سأعترف لك بما لم أبح به لأحد من قبل . إنّ الناس يرون مني الظاهر فقط فيحسدونني على ما حـــصلت مـــن معرفة ، ونلت من شهادة ، وبلغ من مركز ، وعلى ما يَدَّعونه لي من تفوق ونبوغ ، ولا يبصرون الجحيم الـــداخلي الذي أعيش فيه .. إنني منذ أخفقت في تحديد مكاني من هذا الكون ، وتعرّفِ غايتي في هذه الحياة ، والوصـــولِ إلى الإيمان ، لم أذق قط الراحة ، و لم أستشعر إلاّ القلق ، وإلاّ الخوف والشقاء ..

ولَوَددت أن أخسرَ كل ما يحسدني عليه الناس وأظفرَ بالإيمان ، وأضع يدي في بحر الحيرة والعذاب على شـــاطئ اليقين .. إنه لمن المحال أن يجد الطمأنينة قلب لم يعرف الله ، إلاّ أن يكون صاحبه حيواناً يعيش في حدود غرائزه ، ولا يعرف إلاّ الطعام والشراب والملذات ..

هذه الأسئلة الخالدة : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ ما تزال تعاودني فأصحو كلما غفلت على الحـــيرة وعلى الشقاء ..

إنّ الإنسان ينتحر بأن يلقي بنفسه من حالق ، وينتحر بأن يطلق على رأسه الرصاص ، وينتحر بأن يتجرع السم، وينتحر أيضاً في أحضان غانية أو كأس خمر أو شيء يستغرق فيه ويذهل عن الواقع .. وأنا أنتحر الآن بما أندفع فيـــه من عمل سياسي واجتماعي وفكري .. وما أريد في الحقيقة إلاّ أن أهرب من نفسي ، وأنسى مشكلتي الكونيـــة .. وهيهات هيهات ..

وانطوت تلك الليلة الكاشفة ، وفرقت بيني وبين الصديق أمواج الحياة فلا أراه إلاّ لمحات من بعيد ، وقد ارتفـــع مكانه وازداد الناس له حسداً أو غبطة وهم لا يدرون ما انطوت جوانحه عليه .

هذه الأسئلة الخالدة : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ هي الأسئلة التي رافقت الإنسان منذ درج الإنسان، وعاشت معه في كل مكان استقر فيه ووطئته قدماه ، على الشواطئ والضفاف ، وفي الكهوف والخيـــام ، وداخـــل القرى والمدن والأكواخ والقصور .. لازمته في الماضي والحاضر ، ولن تنفك عنه في المـــستقبل .. شـــغلت أيامـــه ، وأرّقت لياليه ، وجسمت أشواقه ومخاوفه ، وكانت سلمه إلى التقدم .. ولا يُصِمّ دونها سمعه أو يُغلِق قلبـــه إلاّ تافـــه يعيش لحاضره وحده ، مقيداً بزمانه ومكانه ، مُنْبَتَّ الصلة بالوجود الواسع ، يمرُّ على سطح الحياة كما يمر الزبد على صفحة الماء .

لقد وُجد الإنسان في الدنيا ولا يعلم من أين ، ويمضي وهو لا يدري إلى أين

أتى من المجهول ، ويذهب إلى المجهول لم يجئ باختياره ، ولا يملك أن يبقى أو يتلبث .. ومقامه علـــى المـــسرح كومضة خاطفة في ليل بهيم ، قبلها ظلام وبعدها ظلام .

لماذا وجد ، وما هو دوره ؟ وكيف يؤديه على الوجه الأكمل ؟ ..

ألا ما أنبلَ السعيَ وراء المعرفة ، والتعب في طلب الحقيقة ، والكفاحَ الدائم للسموّ على معيشة الأنعام والهوام ..

وما أعظم أن يصل الإنسان إلى اليقين فيجد الطمأنينة بعد القلق ، والأمن بعد الخوف ، والواحة الندية بعد مشقة السير ولفح الهجير ..

أما الذين تشعبت بهم الطرق ، وغابت عنهم الصُّوى ، وتاهوا في أودية الضلال ، و لم يجدوا السبيل إلى الله ، فهم في بلاء وعناء وغم شديد .. وما أروع ما تفصح عن حالهم ، تلك الصيحة التي أرسلها تولستوي كما يرسل الغريق المتخبط في اليم صيحته الأخيرة العالية تحمل كل ما عنده من رجاء ، وكل ما ينطوي عليه من أسى ويأس :

(رب هبْ لي إيماناً .. وأعني على أن أساعد الناس ليجدوه) .

(*) **جبل قاسيون في دمشق (أيام كنا في دمشق)**